

نفاق كل العصور

بتاريخ الجمعة، 26 أكتوبر 2012

د . حامد طاهر

يحتل الحديث عن النفاق في القرآن الكريم مساحة لا بأس بها ، وهو لم يظهر إلّا بعد أن هاجر الرسول (ص) إلى المدينة ، وبدأ في تكوين الدولة الجديدة ، التي قامت أساسا على المسلمين من المهاجرين من مكة ، والأندصار من المدينة ، بعد أن تم التآخي بينهم ، لكن جماعة من أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب أظهروا الداسلام ، وأبطنوا الكفر ، وهؤلاء كانوا أخطر على المسلمين من المشركين أنفسهم ، لأنهم كانوا يعيشون بين المسلمين ويعرضون كل تحركاتهم ، لذلك راحوا يكيدون لهم ، ويبثون بينهم الإشاعات المغرضة ، ويشبّطون همهم ، ويعلقون على كل حدث يجرى بصورة سلبية لتكريس اليأس في قلوب المؤمنين .. وقد بين القرآن الكريم مواقفهم في أكثر من حادث وحادثة ، ونبه الرسول (ص) (والمؤمنين إلى خطورتهم ، بل إنه توعدهم بأنهم سيكونون يوم القيامة (في الدرك الأسفل من النار) .. أي بعد المشركين أنفسهم

والسؤال الآن : ماذا كانت مكاسب النفاق في هذا العهد البعيد ؟ كان المسلمون إذا انتصروا يسارع المنافقون باعتبارهم مسلمين ظاهرا لكي يقتسموا معهم الغنائم ، أما إذا بدأوا الاستعداد للحرب تراجعوا مقدمين الأذمار المختلفة لعدم اشتراكهم معهم ، فإذا انهزم المسلمون راحوا يتشفون فيهم ، ويشمتون بهم ، والخلاصة أنهم كانوا بتعبيرنا الحالي ممن يمسكون العصا من المنتصف : يميلون مع الحق عند انتصاره ، ويتراجعون عند هزيمته !

أما النفاق بعد ذلك ، فقد اتخذ شكلا آخر ، وإن ظل مضمونه مستمرا . فهو يعني محاولة بعض الأشخاص التزلف لصاحب منصب أو ثروة بغرض الحصول منه على بعض المكاسب أو الغنائم .. فإذا انتهى المنصب أو راحت الثروة أنفضوا عنه ، وذهبوا إلى شخص آخر . إن التشابه بين نفاق الأمس واليوم يتمثل في أنهم جميعا متلونون ، يجيدون اخفاء نواياهم ، ويظهرون عكسها تماما ، كذلك فإنهم مخادعون لا يخلصون لمن يتعاملون معه إلّا في المظاهر فقط ، بينما هم في أعماقهم قد يبغضونه أشد البغض . وأخيرا فإنهم لا يتوقفون عن ممارسة النفاق طوال حياتهم ، وقلما يتوبون أو يعتذرون ، وكأنما خلقت جيناتهم من تلك الطبيعة الخاصة التي لم يستطع علم النفس حتى الآن أن يقف على دوافعها العميقة .

لاشك أن المنافقين المجدد يكسبون في كل العهود ، ولكن ذلك يحدث دائما على حساب المجتمعات التي يعيشون فيها . وأسوأ أنواع النفاق هي التي تحيط بالحاكم ، الذي يزين له المنافقون من حوله كل ما يقوله أو يفعله ، حتى يعتقد بأن قوله الحق ، وأن فعله هو الصواب ، وبالتالي فإن أي رأى أو فعل للآخرين يعد في تصوره خيانة للوطن .. وقد حدث شئ من ذلك مع كل من عبد الناصر ، ومبارك

، مما أفسد الكثير من قراراتهما

.

أما المسئولون في الدولة ، فقلما يخلو كل واحد منهم من مجموعة من المنافقين في إدارته : يمتدحونه على الدوام ، وبلا مبرر ، ثم يبعدون عنه الآخرين ، لكي يحصلوا منه على كل الامتيازات الممكنة .. ونفس الحال مع أصحاب الأموال ، الذين يزين لهم المنافقون التعامل مع كل المباحات ، وكذلك الممنوعات ، وما أسرعهم لإغرائهم بالتخلص من المضرائب الواجبة عليه باستخدام الرشوة ، وشراء ذمم الموظفين

!

المنافقون دائما يكسبون . أجل ، أما الخاسر فهو من يستمع إليهم ، ويقربهم منه ، ويرفع قاماتهم من حوله حتى تغطى على رؤية الناس من حوله ! إنهم أشبه بالنباتات الطفيلية التي تنمو وتلتف حول النبات الجيد حتى تتلفه وتسقطه ، وهم أشبه بالسرطان الذى يظل ينتشر فى الجسد موهما صاحبه أنه فى أطيب صحة ، وأحسن حال بينما هو يتداعى وينهار !